مرارة أوراقٍ

المكان: قطارٌ متحرِّكٌ من قطاراتِ الصعيدِ.

الزمان: لا يهم.

رحلة ليلية من رحلات قطار. نعم، فأنا عائد إلى الصعيد من سفر قصير إلى القاهرة لقضاء بعض المصالح ومتابعة الحصول على توقيعات رسمية لتمليكي وبعض أصدقائي وأهلي قطعة أرض نقوم باستصلاحها كي نوسِّعَ موردَ لقمةِ عيشِنا. سيجارةٌ أدخّنها في الفاصل بين عربتين. يقفُ أمامي... ليس مُحَصِّلَ تذاكر. ينظر نحوي نظرات خجولة، كأنه يريد أن يكلّمني في شيء. لا أذكر أني أعرفه. أبتسم له ابتسامة تشجيعٍ كأنني أستحثُّه ليتخلَّص من خجلة ويقولَ ما عنده. سأتركه يروي وأحذفُ أسئلتي:

- أنا سيد. وسعيدٌ أنني أتكلم معك يا بيه. أنا عاملٌ في هذا القطار بتسعين جنيه في الشهر يا بيه. من حقّكَ أن تستغربَ. لستُ أعملُ في سبيل العمل. وهل هذا عمل أصلا؟ هي وسيلة. نعم، وسيلة. غيري فعلَها من قبل وحقَّقَ حلمَه. أناسٌ كثيرون لا يتخيَّرون عن سعادتك يركبون القطارَ. لا بدَّ أن هناكَ أشخاصًا مهمِّين يركبون القطار. نعم، أزمة البنزين والسولار لها فائدتها أحيانًا. من لا يجد بنزينًا لسيارته سيضطر لركوب القطار، وربما

أقابله وأسلّمه أوراقي. نعم. حدثَ ذلك مع زميل لي، حاصلٌ أيضًا على بكالوريوس تجارة. صوَّرَ من شهادته الجامعية وأوراقِه عشرات النُّسَخِ. عندما كان يتوسَّمَ في أحدٍ أهميَّةً أو خيرًا، كان يعطيه أوراقه، فربما وجد له وظيفة. ووجد بالفعل أحدُهم له وظيفةً، ويعمل الآن ببضعة آلاف من الجنيهات. بارك الله له فيها، فهو من دلّني على هذه الوسيلة. لا بدَّ أن هناك فاعلي خيرٍ. لو انعدم الخير ستقوم القيامة. هههههههههههههه والله يا بيه كل انتخابات نذهب ونصوّت. وفي كل مرة يفوز من نصوّت له. ربما كنّا أخطأنا في تصويتنا لَمَنْ قَبْلَه. لا يمكن أن يكونوا كلهم أولاد .... هكذا. هههههههههه يبدو أن التصويت صار إدمانًا. ندرك أنه لن يقدّم لنا شيئًا، ومع ذلك ننزل للتصويت. لا تحسب أن كل البشر هكذا. هناك بشر فيهم الخير ويحبون أن يساعدوا الناس. فقط علينا أن نبحث عنهم. لا يهم إن طال البحث. أصوِّرُ أوراقي مثل زميلي بارك الله له في آلافه، وعندما أتوسَّم في أحدٍ خيرًا، أعطيه نسخةً، فربما استطاع أن يساعدني أو يجد لي عملًا عندَه أو عند أي أحدٍ من أُناس مهمِّين يعرفُهم. من لا يستطيع أن يساعد وهو إنسان فاضل سيبحث عن أحد يستطيع أن يساعد. هكذا حياتنا في هذا القطار. شبكة مواصلات تُوصِلُنا لناس يمكنهم أن يقدموا لنا خدمة سندعو لهم طوال حياتنا على أنهم قدموها لنا.

لا أعرفُ إن كنتُ ابتسمُ أو أدمعُ أو أبتسمُ ابتسامة كلها مرارة. ليس بيدي شيء أقدمه له، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من السؤال:

- منذُ متى يا أستاذ سيد تعمل هكذا؟

- منذ خمس سنوات. أثق أنني سأجد أحدهم.

أربتُ على كتفه. لا أعرف إن كان تربيتي مواساةً أم تشجيعًا. أُخْرِجُ بعض النقود من جيبي. أحاول أن أعطيها له. تطفر دمعة من عينيه. أعتذر له. آخذ نسخة من الأوراق، فربما استطعتُ أنا الآخر أن أسأل عن أحد يستطيع أن يساعده. أشدُّ على يديه، داعيًا له، وأعود إلى مقعدٍ أحسُّ بأنه مليء بالأشواكِ.

١٣، ١٩ أكتوبر ٢٠١٤